صُبابة

من مَعين السيرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله سبحانه وتعالى وبحمده، وصلاة على رسوله وسلامًا، ورضوانًا على صحابته وتابعيهم حتى نلقاهم، وبعد فإن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم نبراس الطريق الذي لا يخبو نوره، فإن مدادها القرآن والسنة.

وقد كنت - وما زلت - أحرص على قراءة كتب السيرة؛ القديم منها والحديث، المختصر والمبسوط، المنثور والمنظوم، فلا أكاد أفرغ من أحدها حتى تتوق نفسي وتتطلع عيني إلى آخر.

وأنا – دائمًا - أدون مما أقرؤه: اقتباسات، ومختصرات، وخواطر طويلة ومتوسطة وقصيرة، وأبادر بنشرها ليستفيد منها الجميع كما استفدت، وقد اجتمع لي من ذلك العشرات بل المئات، ومنها هذه المعاني العشرة التي تضمها هذه الصفحات، وأسأل الله تعالى أن ينفع بها كاتبها وقارئها وجامعها كما نفع بأصولها.

والحمد لله وحده، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع نهجه إلى يوم الدين.

أحمد الجوهري عبد الجواد

المعنى الأول

امتلأت الحياة بالقدوات الذين اتخذ الناس أقوالهم وأفعالهم وحياتهم نموذجًا يحتذونه وهدفًا يأتسونه:

- ملوك وأمراء ووزراء.
- علماء وحكماء وفلاسفة
- أدباء وشعراء وخطباء.
- فاتحون وقادة.
- تجار وأغنياء.

وغير هؤلاء من المقدَّمين في الناس، كان لهم أتباع وأشياع.
غير أن واحدًا من هؤلاء لم يبلغ في المنزلة والمكانة، ولم يصل به الجاه والمقام، ولم يبلغ في الائتساء والاحتذاء ما وصل إليه الرسل والأنبياء.
لا سيما خاتم الأنبياء ورئيسهم محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الميزان الأكبر الذي توزن عليه الأشياء؛ على هديه وخلقه وسنته وسيرته، فما وافقها فهو الحق وما خالفها فهو الباطل.

ذلك أن الدنيا لم ولن تصل إلى السعادة الحقيقة والنعيم الكامل والصلاح التام والرشد والصواب والحق والعدل والخير والجمال إلا على خطوات المرسلين والنبيين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.
ولهذا عم أثرهم ودام – وكل خير في البشرية هو منه – وهو باق حتى تفنى الحياة.

المعنى الثاني

أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام هم صفوة الخلق، وقد تكاملت صفاتهم وتنوعت شمائلهم، ثم عرف كل منهم بميزة تميز بها عن الآخرين مع اشتراكهم في الصفة التي تميز فيها بصورة الكمال.

- فنوح عليه السلام وحماسه للدعوة.
- إبراهيم عليه السلام ووفاؤه وإتمامه أوامر ربه.
- وإسماعيل عليه السلام وصدق وعده.
- ويعقوب عليه السلام وتسليمه لله تعالى.
- وموسى عليه السلام ومجاهدته.
- وداود عليه السلام وتسبيحه وصلاته
- وأيوب عليه السلام وصبره.
- وسليمان عليه السلام وحكمته.
- ويونس عليه السلام وذكره وإنابته.
- وزكريا عليه السلام ودعاؤه ورغبته ورهبته وعبادته.
- ويحيى عليه السلام وعفافه.
- وعيسى عليه السلام وزهده.

ثم جمع الله ذلك كله لنبينا صلى الله عليه وسلم فجعله فيه على أوفاه وأتمه وأكمله فبرز في هذه الخصال وفاق غيره فيها، وشواهدها حاضرة في سيرته صلى الله عليه وسلم بقوة.

المعنى الثالث

تعليم السيرة النبوية للأطفال من هدي السلف الصالح رضوان الله عليهم.
قال زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين: كنا نعلم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه، كما نعلم السورة من القرآن.

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين: كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول: يا بني هذه مآثر آبائكم، فلا تضيعوا ذكرها.

وأحب لكل أب أن يقتني كتابًا في السيرة: متوسطًا، معاصرًا، يتميز بالوضوح واليسر، ومن أفضلها: الرحيق المختوم، يقرأ منه كل يوم نصف ساعة، وكلما انتهى منه بدأه من جديد حتى يستظهر هو وأولاده أحداث السيرة.

وفي السيرة: تفسير لآيات، وبيان لأحكام، وتغذية للقلوب، وتقوية للعقائد، ومتعة للعقول، وتسلية للنفوس، وبيان القدوة الحسنة: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده}. وهذا في الظروف العادية واجب، فكيف به في زمن العواصف ووقت الفتنة الذي نعيشه؟!

وسوف يجد فيه الوالد كيف يكون أبًا وزوجًا.
وتجد فيه الوالدة كيف تكون أمًّا وزوجة.
وتجد فيه الأسرة كيف تقوم بحق جيرانها ووطنها ودينها.

ويجد فيها كل فرد منهم كيف يقوم بحق أفراد أسرته من أب وأم وأخ وأخت وأفراد وطنه من المسلمين وغير المسلمين كيف يقوم بحقوقهم وحسن معاملتهم.

- وكذا المدير والقائد.
- والداعية والخطيب.
- والمعلم والمدرس.
- والجندي والعامل.
- والرئيس والمواطن.

وعندها يجد المرء حلاوة اتباعه والاقتداء به صلى الله عليه وسلم، "فإن المسلم الذي لا يعيش الرسول صلى الله عليه وسلم في ضميره، ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره لا يغني عنه أبدًا أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم والليلة."

رزقنا الله وإياكم معرفته ومحبته واتباعه وذكره صلى الله عليه وسلم وبارك وشرف وكرم.

المعنى الرابع

إذا كانت معرفة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم واجبة على كل مسلمة ومسلمة – ولو في الحد الأدنى من معلوماتها – فإنها في هذا الحد وما هو أكبر منه ضرورة لكل من:

- العلماء.
- والدعاة.
- والمصلحين.

وإذا كان من الضروري لمن كان في هذه المراتب أن يراجع سير السابقين من:

- الأنبياء والمرسلين.
- العلماء.
- المصلحين.
- الدعاة والهداة.

فإن أولى هذه السير بذلك هي سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لما تمتعت به من مزايا لم تتوفر مجتمعة لهذه السير كلها، وهذه المزايا هي:

- الصحة والسلامة.
- والوضوح.
- والتكامل.
- أنها تطبيق عملي للمنهج الذي أمرنا الله بالعمل به.

المعنى الخامس

إذا كان الأطباء يدلوننا على صحة الأبدان، وكان المهندسون يقيمون لنا أفضل الأبنية، وكان السائحون يكتشفون لنا المواقع من الأرض، وكان الفلاحون يستنبتون لنا الزروع والثمار، وكان السياسيون يديرون لنا أمور الدول.
وهكذا العلماء والإعلاميون.. إلخ

فإن هؤلاء جميعًا يخدمون جانبًا واحدًا هو الجانب الأدنى في الإنسان – جانب المادة والجسد –.
ويخدمونه مدة هي الأقل من المدتين والحياتين – مدة الحياة الدنيا.–

أما الأنبياء فإنهم يقومون على تربية ورعاية الجانبين: المادة والروح، والروح هي الجانب الأعظم والأعلى والأشرف، ويقومون على ذلك في مدتين: مدة الحياة الدنيا والحياة الآخرة.
فنفع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام نفع عظيم، في القمة، لا يدانيه نفع آخر، فضلًا عن أن يساويه أو يسبقه.

المعنى السادس

لو كان محمد صلى الله عليه وسلم خطيبًا ماهرًا يجذب الجماهير بحسن بيانه، أو كاتبًا بارعًا يلفت الناس بجمال ترسله وعظم بلاغته، أو حكيمًا يبهرهم بعمقه، ونحو هؤلاء من النوابغ الذين أعجب بهم الناس في جانب النظريات.

لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كذلك لما تبوأ تلك المكانة التي حلها من قلوب الناس، ولما كان له هذا الأثر في قلوبهم، ولما عاشت سيرته بهذا الشكل من الكمال والوضوح والتأثير في هذه الأجيال والأمكنة والأزمنة جميعها على اختلاف أطيافها وأشكالها من جنس ونوع ولون ولسان.

إن أساس نجاح العلم: العمل، وأساس نجاح النظرية: التطبيق، وأساس نجاح القول: الفعل، وأساس نجاح الدلالة: القدوة العملية، وبهذا نجح الأنبياء وفي المقدمة منهم نبينا صلى الله عليه وسلم وكذا الصحابة والتابعون وأجيال الإسلام العظيمة وأفرادهم الذين تمثل الناس حياتهم واقتدوا بسيرهم واقتفوا آثارهم، كان باعث ذلك هو: التطبيق العملي والقدوة الحسنة الفعلية والأسوة الواقعية والهدي الفعلي.

وكان هذا السبب الأعظم في انتشار الإسلام وجذب قلوب الناس بأنواعهم إليه، ويوم انحسر أخذنا نأرز إلى أوطاننا ونعود إلى مواضع أقدامنا الأولى بل تهددنا العدو في مواطننا وغلب علينا داخلها.

المعنى السابع

من الضروري للأمة كافة بصورة إجمالية، وللدعاة والعلماء والمصلحين خاصة بصورة تفصيلية أن يتعرفوا على سير المصلحين السابقين، خاصة الأنبياء والمرسلين، أولئك الذين أنعم الله علينا بهم فأخرجونا من الظلمات إلى النور.

وفي مقدمة هؤلاء النبيين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم سيدهم ومقدمهم وإمامهم وخاتمهم..

الداعية.

الشهيد.

والمبشر.

والمنذر.

الذي ظهرت فيه هذه الصفات كما لم تظهر في نبي أو رسول، فضلًا عن عالم وداعية ومصلح ممن سواهم.

ولن تخرج البشرية من ظلمات الأيام الحاضرة والمستقبلة إلا على النحو الذي خرجت به من ظلمات الأيام الماضية.

المعنى الثامن

إن الله تبارك وتعالى بعث أنبياء ورسلًا كثيرين، كان الأنبياء بعدة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: قريبًا من أربعة وعشرين ومئة ألف نبي، والرسل بعدة أهل بدر: قريبًا من ثلاثة عشر وثلاثمئة رسول.

فإذا تساءلنا عن سيرة أولئك النبيين والمرسلين أين هي؟

- حياتهم الشخصية من الميلاد إلى الابتعاث.
- حياتهم الاجتماعية مع الآباء والأجداد ثم الزوجة والأولاد.
- مواقفهم العملية فيما يخص الأقوال والأفعال والأحوال.
- عباداتهم ومجاهداتهم ومعاملاتهم ومواقفهم وأخلاقهم.
- جهادهم ورحلاتهم الدعوية وجهودهم العلمية والعملية والتربوية وآثارهم.
- صحابتهم وحواريوهم وتلامذتهم ومن أخذ عنهم.

إلخ هذه الأمور التي ينبغي أن تكون محل القدوة والأسوة فيهم.

إننا – ونحن نثير هذه التساؤلات – على يقين من أن الجواب عنها مفقود كله إذا كان المقصود هو التفصيل، ومفقود في المعظم إذا كان المقصود هو الإجمال.

وأن ذلك لا يتوفر إلا لنبي منهم واحد ورسول منهم لا غير، ذلكم النبي والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي توفرت لسيرته العطرة وحياته الطيبة:

- التاريخية والواقعية.
- والصحة والسلامة.
- والكمال والتمام.
- والوضوح والشفافية.
- والشمول والعموم.
- والإنسانية والبشرية.

المعنى التاسع

الإنسان مطبوع على تقليد من سبقه من العظماء :

- يتعرف على سيرتهم.
- ويتفهم مواقفهم.
- ويقفو آثارهم.

وإنما يلفت نظر الإنسان في سيرة العظيم :

- تاريخيتها: أن يثبت وجودها.
- حقيقيتها: أن تصح تفاصيلها.

ويلفت نظره في مواقفهم:

- كمالها: تميزها بالظهور والنضوج.
- وشمولها: انتشارها وتغطيتها لجميع الجوانب في السلم والحرب، في الخصوص والعموم، في العبادة والمعاملة.. إلخ.

ومما يلفت نظره في اقتفاء آثارهم:

- أن تكون طبيعية: غير متكلفة.
- أن تكون ثابتة: غير طارئة.
- أن تكون واضحة: غير مطلسمة.

ومن تأمّل في العظماء الذين تقتدي بهم الحياة اليوم وجدهم ثلاثة أصناف:

- شخصيات خيالية: مثل بوذا وزرادشت ممن لا يمكن إثبات وجودهم.
- شخصيات حقيقية: مثل نوح وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام لكن ما حفظ لنا من حياتهم شيء قليل لا يغطي جوانب حياة الإنسان التي يريد أن يقتدي بها الإنسان في حياته.
- شخصيات حقيقية: مثل محمد صلى الله عليه وسلم والذين اتبعوه، وهؤلاء كملت فيهم تلك الصفات التي يبحث عنها كل إنسان في القدوة التي يقتدي بها، بشروطها وكمالها وتمامها.

المعنى العاشر

من الشروط التي يجب توفرها في الشخصية التي نقدمها لتكون قدوة للناس: **أن تكون شخصية جامعة**.

وهو ما لا نجده في شخصية من شخصيات التاريخ بالقدر الذي نجده في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

في جانب الألوهية.
وفي جانب الشخصية.
وفي جانب علاقاته العامة.

فنحن نجد في النبي صلى الله عليه وسلم شخصية العابد الخاشع القانت.

ونجد في شخصيته صلى الله عليه وسلم الإنسان العظيم الكامل.

ونجد في شخصيته صلى الله عليه وسلم الأخ والصديق والوالد والمربي والمعلم والخطيب والقائد والرئيس والزوج والمدير وصفات كثيرة لا نجدها في غيره صلى الله عليه وسلم مجتمعة أو بهذا القدر من العلو والرفعة والطهر والسمو.

المعنى الحادي عشر

لا ريب أن كل نبي ورسول أرسله الله تبارك وتعالى كان عظيمًا تتمثل عظمته تلك في كل ناحية من نواحي الحياة:

في ناحية علاقته بربه.

وفي ناحية علاقته بنفسه.

وفي ناحية علاقته بالناس أجمعين.

ولا ريب أن الله قد أقام به الحجة على أهل زمانه كلهم وانتفع بحياته وسيرته من كتب الله لهم التوفيق.

لكن هؤلاء الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه كانوا يبعثون في أقوام مخصوصين بشرائع مخصوصة لأزمان مخصوصة.

- خصوصية في الزمان.
- وخصوصية في المكان.
- وخصوصية في الناس.
- وخصوصية في التشريعات.

وربما في أمور أخرى إضافة إلى ذلك.

ولهذا كان مصير هدي أولئك الأنبياء والمرسلين بعدهم: الضياع، فلم يحفظ لنا التاريخ كل شيء عنهم.
وهذا دليل على أنهم كانوا قدوات لأهل زمانهم، دون غيرهم، إذ لو كانوا قدوات لمن بعدهم لحفظ الله تبارك وتعالى هديهم حتى يتسنى لمن بعدهم أن يقتدي بهم.

إن ضياع كتب أولئك المرسلين، وضياع هديهم الذي هو موضع القدوة للبشرية منهم مع بقاء كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) وهدي نبينا صلى الله عليه وسلم وسنته:

- القول.
- والفعل.
- والتقرير.
- والهم.

لمن أعظم الأدلة على ختم النبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم، وختم الكتب بالقرآن الكريم، وطلب الاهتداء والاقتداء بالمصطفى صلى الله عليه وسلم في كل صغيرة وكبيرة دقيقة وعظيمة.

تمت بحمد الله تعالى